حسن حسني عبد الوهاب 1963/1883 (*)

جلول ريدان.

المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي – بير الباي تونس.

مدخل منهجي

هذا الكتاب، هو أطروحة في البيوغرافيا ولقد أجبرتني ظروف خارجة عن نطاقي على القيام بعملية"بتر" قاسية شملت أكثر من 250 صفحة من هذا العمل. ورغم هذه العملية القسرية، التي مثلت في حقيقة الأمر فرصة غير منتظرة للرجوع لهذا البحث، بالتفحص والنقد والمقارنة والتدقيق، فإنني بذلت قصارى الجهد كي أحافظ على دقة ووضوح إشكالياته، ووحدة وترابط فصوله وتناسق وانسجام أجزائه، ليتسنى للقارئ الكريم الوصول إلى جوهر هذه الشخصية الإشكالية، شخصية حسن حسني عبد الوهاب والتفاعل معها، والاطلاع من خلالها، على البعض من خفايا تاريخ تونس المعاصر المشبع تعتيما.

إن هذا النوع من الدراسات مازالت تحف به عديد الصعوبات مثل :

– المزالق المنهجية والمعرفية وغيرها (بالنسبة للذات الباحثة وعلاقتها بالذات البحث)..إذ تختلف مناهج الكتابة البيوغرافية ومحتواها عن مثيلاتها من الكتابة في التاريخ كما أصبح معروفا.

---

*) أطروحة نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس في 28 نوفمبر 2007 تحت إشراف الأستاذ الهادي التيمومي.

– المناهج السلوكية وردود الفعل التي لا يمكن التكهن بها بالنسبة للذات المترجم لها...على غرار شخصية عبد الوهاب..

– شح المصادر والمراجع حول هذا الموضوع..

– غياب التقاليد في الكتابة البيوغرافية وعدم رسوخها بالجامعة التونسية

– عدم توفر الإطار الملائم للكتابة التاريخية البيوغرافية (التي تحصنت وراء قلاع من المحرمات والممنوعات والقيود) ليس كما هو الشأن بالنسبة للدول المتقدمة، حيث استطاعت ثورة العلم والعقلنة وحقوق الإنسان والديموقراطية أن تفتح هذه القلاع والحصون وأن تزيل هذه القيود المعرقلة لها، دون خجل أو وجل، لفائدة الجمهور الواسع من الباحثين والقراء على حد السواء، ولفائدة الكتابة التاريخية وإعلاء علم التاريخ عموما ...

الإطار الزماني

لقد أنجزت هذه الدراسة، في إطار زمني معين امتد قرابة قرن من الزمن بدايته تنفذ الاستعمار بعد اتفاقية المرسى1883التي تزامنت مع مولد عبد الوهاب، (6 جوان 1883)، ونهاية العشرية الأولى لفترة ما بعد الاستقلال التي تزامنت مع وفاته، لذلك فإن عبد الوهاب يكون قد عاصر قمة النفوذ الاستعماري وبداية بناء الدولة القومية الحديثة التي بدأها رجال الإصلاح كمشروع قبل مجيء الاستعمار وواصلوه في زمنه ومن بعده. ويكون أيضا شاهدا وفاعلا اجتماعيا، سمح لنا طبقا لمنهج الدراسات البيوغرافية "بإعادة صياغة وبناء حقبة زمنية برمتها" كانت حبلى بالإشكاليات والقضايا المعقدة التي عرفها تاريخ تونس في هذه الفترة.

لقد سعينا قدر الإمكان إلى رصد ملامح التغاير والتناقض لهذه الشخصية التي نجحت إلى حد كبير في التأقلم مع كل الظروف التي حاقت بها وكيفت إلى حد ما سلوكياتها معها ووفرت لنا فرصة لاكتشاف جوانب أخرى من تاريخ تونس المعاصر هو بالأساس التاريخ الثقافي للبلاد التونسية الذي ارتبط إلى حد معين بسير هذه النخب التي مثّل عبد الوهاب رمزا فاعلا من رموزها المعاصرين نستشفه من خلال المسيرة الفكرية والثقافية الطويلة ومن خلال الآثار التي تركها لنا، سواء المعروف منها أو غير المعروف من طرف القراء والباحثين

تغاير شخصية عبد الوهاب (الشخصية الثنائية بين واقع ثلاثي المعايير)

لقد تفاعلت شخصية عبد الوهاب مع هذا الإطار، فخضعت لضغوطات مكثفة فرضتها عليه مسيرته المهنية والسياسية والثقافية من ناحية، وانتماءاته الاجتماعية وأصوله المخزنية ومصالحه الشخصية من ناحية أخرى، وتتمثل هذه الضغوطات في :

الواقع المعيش الذي يمثله المجتمع التونسي ما قبل الرأسمالي بثقافته وأخلاقياته التقليدية وبقيمه الشرقية التي انتمى إليها عبد الوهاب وسايرها في عديد المواقف كموقفه من مسألة التكشف على المرأة الحرمة ومصدر الشرف حيث (أمر ببناء حائط علوه 6 أمتار لمنع تكشف صومعة الزاوية الشبيلية بالمهدية على أحد المنازل إثر تلقيه شكوى في هذا الشأن)..وموقفه من العامة الخاضعين للإسلام الطرقي والرافضين لتلقي العلاج في نفس هذه الزاوية (فخلع القايد عبد الوهاب برنسه وأخذ يعنف أنصار الزاوية المذكورة ضربا وصفعا لوقوفهم ضد إدخال معدات الاستطباب للزاوية لمعالجة المرضى من طرف الطبيب الاستعماري وهددهم بحرث الزاوية أمام تعجب ضابط البوليس الفرنسي

الواقع المقنن الذي مثلته النظم والمبادئ والأخلاقيات الرأسمالية، بالشروط الثقافية والسياسية الجديدة التي أدخلها وفرضها الاستعمار على الواقع التونسي، ودفع النخبة للتعامل معها والانخراط فيها : فكان عبد الوهاب التاجر ومؤسس التعاونيات الاقتصادية والاجتماعية .. وصاحب المصرف التجاري العربي لسنة 1917 أي عبد الوهاب الليبرالي بالمعنى العام للكلمة.

واقع الشخصية أو ما يعرف بالواقع المتمثل إنه الواقع النابع من طبيعة تكون الشخصية..ومن رؤيتها وتصورها للأشياء وباختصار من ثقافته المزدوجة بين الواقع التقليدي الذي نبذ فيه مظاهر التخلف و"الواقع الاستعماري" الذي رأى فيه أداة خضوع واندماج، فرفضه وقاومه بشدة، لأنه يتناقض مع الثوابت القومية لنشأته وتربيته وتكون شخصيته منذ طفولتها؛ فكانت هذه الشخصية الثنائية المشبعة بانتمائها القومي العربي الإسلامي العقلاني من ناحية، والشخصية المتفتحة على مبادئ العلم والتقدم والحرية والديموقراطية.... (قيم المجتمعات المتقدمة). من ناحية أخرى

إن شخصية عبد الوهاب في أبعادها المختلفة هذه، بقيت شخصية مغمورة غير معروفة إلى حد ما وغير مفهومة للقراء والباحثين الذين لم يتعقبوا مسيرتها في أعماقها واتجاهاتها المختلفة... وفي مراوحتها بين الثبات والتحول..ولدى معاصريه الذين صاغوا لنا شخصيات غير واقعية تتراوح مواصفاتها بين الشخصية المثالية جدا بالمعنى العلمي والمعرفي والأخلاقي(العلامة حسن حسني عبد الوهاب) والشخصية الفظة بالمعنى الإداري والسياسي (القايد)، أو شخصية" المتعاون" مع الاستعمار بالمعنى "السياسي والإيديولوجي" (الوزير). لقد كان عبد الوهاب في واقعه، شخصية شديدة التناقض ومتكاملة بين ممارستها للسلطة(القايد) وللقلم وفن الكتابة، (العلامة) فكان الأول يقظا شديد الدهاء عدوانيا أحيانا، وكان الثاني رقيقا مهذبا طيب المعشر، كما وصفه معاصروه

النخب الوطنية ومسألة التحرر والاستقلال انطلاقا من تجربة عبد الوهاب

إن هذه المواصفات دفعت بنا إلى التدقيق في علاقة النخب الوطنية العاملة تحت الهيمنة الاستعمارية كما جسمها عبد الوهاب، بمسألة التحرر والاستقلال؛ فاكتشفنا أن هذه النخب من موقعها، لم تخدم بالضرورة مصالح الاستعمار، بل إن أهدافها وانطلاقا من سيرة عبد الوهاب، كانت تقوم بالأساس على مبدأ إعلاء الهوية والذات القومية ورفض الانصهار والاندماج الذي سعى الاستعمار جاهدا إلى تحقيقه..ولقد جسمت النشاطات الفكرية والثقافية لعبد الوهاب من الناحية العملية هذا المبدأ (مثال ذلك، موقفه من جامع الزيتونة وهو رئيس لجنة إصلاح التعليم به آنذاك)... فالوعي بالهوية الثقافية هو الذي وضع الأسس الأولى للمقاومة الوطنية للاستعمار (عن طريق المقاومة الثقافية والفكرية العمل الجمعياتي) وهو الذي أسس فيما بعد للمقاومة السياسية المنظمة في بلادنا كما هو معروف...

إن هذه القراءة للأحداث، جعلتنا نتساءل عن دور هذه النخب ذات الثقافة الثنائية في مسيرة البناء الوطني لفترة ما بعد الاستقلال. لقد أقصيت هذه النخب عن المساهمة في هذه المسيرة من طرف القوى الاجتماعية والسياسية التي أمسكت بدواليب السلطة، "إذ وجهت لها تهمة التعاون مع الاستعمار" ناكرة

عليها دورها التحرري وما يمكن أن تساهم به من جهد في بناء دولة الاستقلال، أو الدولة القومية، انطلاقا من تجاربها وخبراتها في هذا الشأن ..

مفهوم الدولة القومية في نظر عبد الوهاب وموقفه من المسألة الديموقراطية

لقد كان لعبد الوهاب رأي خاص في مستوى مفهوم وفلسفة الدولة القومية وتشكلها عبر الزمن.

فقد بين عبد الوهاب أن الدولة التونسية كانت مفهوما ثابتا وقارا عبر التاريخ.. من دولة" قرطاج".. وحتى دولة الاستقلال وتأخذ هذه الدولة شرعية وجودها لا من مؤسساتها وتنظيماتها وجغرافيتها فحسب، وإنما بالخصوص من مدى قدرة "الإنسان التونسي" على بناء ذاتيته القومية الثقافية والحضارية ومن مساهمته في بناء الحضارة الإنسانية في ذات الوقت .. إن الوجود الفعلي لهذه الدولة وتملكها للأدنى الحضاري والسياسي والثقافي والفكري هو الذي خول لها مقاومة الاستعمار والوصول إلى تحقيق الاستقلال وحكم نفسها بنفسها، فكان الاستقلال نتاجا لوجود هذه الدولة وللدور الذي قامت به هذه النخب من خلال التواجد (والتداول) في/ على أطر هذه الدولة وحماية مؤسساتها.

إن عبد الوهاب عندما كتب عن الاستقلال وساند بورقيبة، (الخلاصة.ط4) كان في الآن نفسه يحقق ذاتيته التونسية وذاتيته الفكرية والسياسية ومسيرته الشخصية ومدى ارتباط هذه المسيرة بمسيرة الدولة التونسية قبل وبعد الاستقلال . فالاستقلال بالنسبة إليه لم يكن نقطة بداية بناء الدولة القومية، لأن هذه الدولة كانت قائمة الذات، رغم أنها كانت محكومة "بالتسلط والتغلب" كما كان يقول، وإنما هو شرط أساسي لبداية بناء الندية والتكافؤ مع الاستعمار المنهزم الذي انسحب بفعل انتصار" الأنا القومي التونسي" وبداية بناء الدولة الوطنية بقطع النظر عن اتجاهات مكوناته السياسية والاجتماعية؛ الإيديولوجية والثقافية. (إن عبد الوهاب كان يعرف جيدا أن بناء الدولة القومية العصرية كان مشروعا قديما تولته النخبة التونسية برعايتها منذ فجر القرن 19، مع أحمد باي وخير الدين (الذي تحدث عن زرع حب الوطن في نفوس الأفراد) ومن والاهم، واستمر حتى تحت السيطرة الاستعمارية حيث

انتكس هذا المشروع وعمل الاستعمار على تعطيله وتشويهه، كي لا ينافس وجوده ويعرقل سياساته.)

إن دولة ما بعد الاستقلال، الدولة الوطنية، واجهت عديد الصعوبات تمثلت في تعرض "الوحدة القومية" إلى خطر التصدع السياسي والاجتماعي، دليلها الانتقال السريع من التجربة الليبرالية إلى التجربة التعاضدية، التي اتخذت لها شعارا جذابا ابن الوقت "الاشتراكية الدستورية".. بسبب سياسة التناقض التي أصبحت تمثل ركنا من أركان مسيرة الدولة التونسية الحديثة العهد بالاستقلال؛ بين الأسس الليبرالية لجوهر هذه الدولة والتوجه العام للمجتمع التونسي ولانتماءاته الثقافية من ناحية، والتعنت في تطبيق سياسة التعاضد وهي سياسة اختلفت عن هذا الجوهر وعن التصور الثقافي الذي وضعته النخبة منذ قرن تقريبا، زيادة عن اختلافها عن مفهوم التعاضد والاشتراكية كما خبرها عبد الوهاب وعاينها عندما زار الاتحاد السوفييتي، من ناحية أخرى.

لقد أدت سياسة حل الأحباس، توحيد وتعصير التعليم وتطبيق التعاضد عوض القيام بالإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الملكية، بفئات المنتجين الصغار والفلاحين الفقراء إلى النزوح والتحول إلى احتياطي كبير

من اليد العاملة الرخيصة والطيعة لرأس المال المحلي والعالمي بعد إلغاء التعاضد وحصول بورقيبة ولأول مرة منذ الاستقلال على إجماع الشعب حوله أو على ما كان يسميه "الوحدة القومية".

لقد اشتغل عبد الوهاب بالسياسة وحذق مناوراتها فلم تخف عليه الأهداف الحقيقية للانخراط في هذه التجربة، إنها أهداف سياسية تتمثل في مركزة السلطة السياسية بيد رجل واحد وحزب واحد وتغييب المسألة الديموقراطية في بعدها السياسي والاجتماعي (على غرار ما فعله بورقيبة بالنسبة لمسألة "تحرير المرأة والمجتمع" وإصدار مجلة الأحوال الشخصية حيث تحولت من قضية اجتماعية إلى رؤية شخص واحد سيطر على أجهزة السلطة وفرض ثقافة الدولة (الثقافة المؤسساتية)على ثقافة المجتمع والفاعلين الاجتماعيين الحقيقيين) ، دون مراعاة النقاشات "الديموقراطية" التي خاضتها القوى الاجتماعية منذ أن طرحها الحداد كمسألة جوهرية للتحرر الاجتماعي والثقافي للمجتمع التونسي.

إنها لمفارقة عجيبة تلك التي حققها بورقيبة بين حصوله على إجماع الشعب من حوله من ناحية بعد إلغاء التعاضد، ونزعه سلاح نهضته وتقدمه، بتنفير هذه الفئات وسواد الشعب من الاشتراكية والديموقراطية كأداة تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية أيدت تجارب عديد الشعوب صحتها.

الخاتمة

إننا حاولنا في هذه الدراسة، أن نحيط بقدر الإمكان بخاصيات شخصية حسن حسني عبد الوهاب، وبخصوصيات الفترة الزمنية التي عاش فيها، وما أفرزته من إشكاليات أثرت في العمق على سلوكه؛ فكونت منه شخصية ثنائية ثابتة، في جوهر انتمائها القومي العربي الإسلامي العقلاني بمواصفات وطنية تونسية، متفتحة على قيم العلم والتقدم في الحضارة الإنسانية شرقيها وغربيها، فكان بذلك جسرا متينا للتواصل الثقافي والحضاري في إطار العلاقات الندية، وعلاقات التكافؤ الإنساني. إن عبد الوهاب لم يعترف "بتفوق الحضارة الغربية على الحضارة العربية الإسلامية"، بل بتفوق قيم العلم والتقدم والإصلاح في كلاهما، فسعى إليها وانخرط فيها...

لقد سما عبد الوهاب فوق الصراعات التي عرفتها البلاد مباشرة بعد الاستقلال، فسكت ولم ينتم أو يعلن ميله إلى أي طرف من الأطراف؛ ولكن سكوته كان في الحقيقة يعني الشيء الكثير...إن سفر عبد الوهاب "لسائر أقطار أوروبا"..والإتحاد السوفييتي، مكنه من التعرف عن كثب على معنى الديموقراطية بمفهومها الليبرالي، وعلى معنى التعاضد والاشتراكية كما كانت تطبق في الاتحاد السوفييتي...

لقد أكد عبد الوهاب في آخر أيامه عندما ألم به المرض، في إشارة إلى ازدرائه للسياسة وإلى أهمية المسألة الثقافية في بناء مستقبل الأمم الحديثة :

لم يبق شيء في الدنيا نسر به إلا الدفاتر فيها الشعر والسمر ..